الفصل الرابع

اَلفائِزُون بِالشَّفاعَةِ

- اَلْفائِزُونَ بِالْجَنَّةِ بِغَيْرِ حِسابٍ.
- اَلتَّوْحِيدُ الْخالِصُ.
- إِجابَةُ النِّداءِ.
- سُكْنَى الْمَدِينَةِ.
- مُناجاةٌ حَوْلَ الشَّفاعَةِ.
- عُتَقاءُ اللهِ تبارَكَ وتعالَى.
- إِغْلاقُ الْأَبْوابِ.

obeikandl.com

اَلْفائِزُونَ بِالْجَنَّةِ بِغَيْرِ حِسابِ

أخرج الإمام مسلمٌ فِي صحيحه بسندِهِ عنْ أَبِي هُرَيْرةَ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «يَدْخُلُ مِنْ أُمَّتِي الْجَنَّةَ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسابٍ.»

فقالَ رَجُلٌ: يارَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قال: «اَللَّهُمَّ.. اجْعَلْهُ مِنْهُمْ» . ثُمَّ قامَ آخَرُ فَقال: يارَسُولَ اللهِ ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ، قالَ: «سَبَقَكَ بِها عُكاشَةُ» .

***

هذه الرِّوايةُ وأَمثالها من بُشرياتِ الحبيب المُصْطَفَى ﷺ لأُمَّتِهِ. فلقد علَّمه ربُّه أنَّ هناك طوائِفَ من المُسلمين يدخلون الْجَنَّةَ بغيرِ حسابٍ ولا عقابٍ.

وقُدِّرت هذه الطوائفُ بسبعين أَلْفًا، وفي رواية أخرى: «سَبْعُونَ أَلْفًا.. مَعَ كُلِّ واحِدٍ مِنْهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا» ، وأَيًّا ماكان، فالمُراد عددٌ كثيرٌ كرَّم الله به النَّبِيَّ وأمة الإسلام..

وقد جاء وصفٌ لهؤلاء بأنهم على صورةِ القمرِ ليلةَ البدر، وأنهم مُتَماسِكون، آخذٌ بعضُهم بعضًا، لايدخُلُ أوَّلُهم حتى يدخُلَ آخِرُهم، أي: إنهم يدخلون صفًّا واحِدًا، بعضُهم بجوارِ بعض، مِمَّا يُؤكِّد عِظَمَ سَعَةِ بابِ الْجَنَّةِ.

وقد استحقّ هؤلاء السَّبْقَ إلَى الْجَنَّةِ والدخولَ بِغَيْرِ حِسابٍ لِصِدْقِ عقيدتِهم فِي اللهِ، وكمالِ اعتِقادِهم فِي قُدْرةِ اللهِ وجلالِه وَكَمَالِه فقال ﷺ : «هُمُ الَّذِينَ لايَكْتَوُونَ، ولا يَسْتَرْقُونَ، وَعَلَى رَبِّهِم يَتَوَكَّلُونَ» أَى إنهم بلغوا القمةَ فِي الإيمان. يمارسون حياتهم ويتخذون الأسبابَ المشروعة، إلَّا إنَّ لهم صِلةً قويّة باللهِ عزّ وجلّ تُثَبِّتُهُمْ بالقولِ الثابتِ فِي عقيدتِهِمْ فالتوكّل: حرَكةُ قلبٍ، والأخذُ بالأسبابِ: حركةُ جوارحٍ، ولامُنافاةَ بيْنهما. وقد رَقَى رسولُ اللهِ ﷺ واسترْقَى، وحثَّ على التَّداوِى، وذكر منافعَ بعضِ الأدويةِ والأطعمةِ كالعسلِ والحبَّةِ السوداء.

ولما شوَّق الرسولُ أصحابَه إلَى ما أعدّه الله لهؤلاء السابقين، قام أحدُ الصحابةِ، وهو عُكَّاشَةُ (بضم العين وتشديد الكاف أو تخفيفها) وسأل الرسُولَ ﷺ أنْ يدعوَ اللهَ له فيجعلَه من هؤلاء السابقين.. واستجاب الله تبارك وتعالى دُعاءَ نبيِّه، وبشَّر الرسولُ ﷺ عكاشة بهذه المنزلةِ العظيمةِ..

وأمامَ هذه الاستجابةِ السريعةِ والبُشرى العظيمةِ قام رجلٌ آخرُ وطلب نفْسَ الطلبِ، وقال: يارسول اللهِ، أُدْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِى مِنْهُمْ، فداعبه الرسولُ الكريمُ ﷺ وقال له: «سَبَقَكَ بِها عُكَّاشَةُ».

ولعلَّ الرجُل الثانىَ لم يكن بصفةِ السابقين ولا بمنزلة عُكاشة فِى الدِّين، فلم يتلقَّ الرسولُ وحيًا بشأنِه..

اَلتَّوْحِيدُ الْخالِصُ

أخرج البخاريُّ في صحيحِهِ بسندِهِ عن أَبِي هُريرَةَ أَنه قال: قُلْتُ: يارَسُولَ اللهِ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفاعَتِكَ، يَوْمَ الْقِيامَةِ؟

قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ ظَنَنْتُ – يَا أَبا هُرَيْرَةَ – أَن لَّا يَسْأَلَنِي عَنْ هذا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِما رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ. أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفاعَتِي يَوْمَ الْقِيامَةِ: مَنْ قالَ: لا إِلهَ إِلَّا اللهُ، خالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ».

***

أَبو هُريرَةَ: راوِيَةُ الإسْلام، منحَه اللهُ ملَكةَ حِفظٍ واسعةٍ. وقد سأل رسُولَ اللهِ ﷺ سؤالًا عجبًا، كان محلَّ اهتمامِ الرسولِ الكريم، ودلَّ على شغفِ أَبى هريرةَ بالعلم، وحِرْصِه على المُتابَعةِ الأمينةِ للمصطفى الكريم..

لقد قال: يارسولَ اللهِ: منْ أَسعدُ النَّاسِ بشفاعتِك يومَ القيامةِ؟

أى: من أكثرُ الناس انتِفاعًا بشفاعةِ الرسولِ الكريم، لأن شفاعة الرسول ﷺ مُتعدِّدة، منها ماهو عامٌّ للخلائقِ أجمعين ، وهو الشفاعة العُظمى، ومنها ماهو خاصٌّ. وهذا الخاصُّ للمُؤمنين فقط. قد يكون دخولًا للجنةِ بلا حساب، أَو رفْعًا للدرجاتِ، أو إِخْراجا من النَّار بعد قضاءِ العُقوبةِ المُؤقَّتة..

obeikandl.com

فالسؤال من أبى هريرةَ: عَمَّن يحْصُل على قدْرِ أعظمَ، ويستفيدُ فائدة كُبْرى.. ولأهمِّيَّةِ السؤالِ، ولمَكانةِ أبِى هُرَيرة، قال عليه الصلاةُ والسَّلام: «لَقَدْ ظَنَنْتُ - يا أبا هُرَيْرَة - أن لَا يَسْألَنِى عَنْ هذا الحَديثِ أَحَدٌ أَوَّلَ مِنْكَ، لِما رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الحَدِيثِ» .

ثم أجاب الرسولُ ﷺ على السؤالِ، مُحدِّدًا صفاتِ هؤلاء السُّعداء، فقال: «أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفاعَتِي يَوْمَ القِيامَةِ: مَنْ قالَ: لا إِله إِلَّا اللهُ، خالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ» (شَكٌّ مِنَ الرَّاوى).

فهؤلاء السعداء هم الذين حقّقوا عُمْقَ الإيمانِ وانشرحت صُدورهم بنورِ الإسلام، وأخلصوا العِلْمَ والعمَل، وآثروا المُتابعة وحُسْنَ الاقتداء..

والمُراد بقوله «مَنْ قالَ» : من نطَق مُعبِّرًا عن عقيدتِه. والمُراد بقولِه: « لا إله إلا الله» : كلمةُ التوحيد بشِقَّيْها المُتعلِّقَيْن بالألوهيةِ والنُّبُوَّةِ، أىْ: لا إِلهَ إِلَّا اللهُ، مُحَمَّدٌ رَسُولُ الله» . فلا يَكْفِى أحدُهما دون الآخر، فهما مُتلازِمان. فالدِّين قائِمٌ عَلى توْحيدِ الله تبارك وتعالَى ونُبُوَّةِ مُحمدٍ ﷺ..

وهذه العقيدةُ لابُدَّ أَنْ تكونَ خالصةً من النِّفاقِ والرِّياءِ على حَدِّ قوله تبارك وتعالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ۝٢ ﴾[1].

---

(١) سورة الزمر الآية ٢.

ومتى سَـلمت العقيدةُ من الشِّرْك وقامت على الإخلاص: فقد تحقّقت المُتابعة، واستكمل الإنسانُ أسبابَ السعادةِ في العملِ، وتفضّل الله تبارك وتعالى عليْه بمعالمِ السعادةِ في الأجر والثوابِ..

obeikandl.com

إجابَةُ النِّداءِ

أخرج البخـــاريُّ فِــي صحيحِهِ، بِســـندِهِ عن جابرِ بن عبــد اللهِ: أنّ رسولَ اللهِ ﷺ قال:

«مَنْ قالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّداءَ: اَللَّهُمَّ: رَبَّ هذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، والصَّلاةِ الْقائِمَةِ آتِ مُحَمَّدًا الْوسِيلَةَ والْفَضِيلَةَ وابْعَثْهُ مَقامًا مَحْمُودًا الَّذِى وَعَدْتَهُ، حَلَّتْ لَهُ شَفاعَتِي يَوْمَ الْقِيامَةِ» .

***

الـمُــراد بالنِّداء هنا هو الأذانُ للإعلام بدُخولِ وقت الفريضـة. ومحلُّ هذا الدعاءِ عَقِبَ الفراغِ مِن الأذان لقولِه ﷺ كما ورد فِي صحيح مسلم:

«إذا سَمِعْتُــمُ الْـمُؤَذِّنَ، فَقُولُوا مِثْلَ مايَقُولُ، ثُــمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فإنَّهُ مَنْ صَلَّى عليَّ صَلاةً: صلَّى اللهُ عَلَيْهِ عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ» .

وسُؤال الوسيلةِ يكون بهذه الكلمات النبويَّةِ:

«اَللَّهُمَّ، رَبَّ هذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ، والصَّلاةِ الْقائِمَةِ: آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ والْفَضِيلَةَ وابْعَثْهُ مَقامًا مَحْمُودًا الَّذِى وَعَدْتَهُ» .

والـمُــراد بالدعوةِ التامةِ، دعوةُ التوحيد؛ فهى تامّة لاشِــرْكَ فيها، وهى تامَّة، أى: باقيةٌ إِلَى يوْمِ الدِّين.

والـمُـراد بالصلاةِ القائمةِ: قوْلُ الـمُؤذِّن: «حَـيَّ عَلَى الصَّلاةِ» لأنـها دعوةٌ إلَى إقامةِ الصلاةِ الـمأمورِ بها في مِثْلِ قوْلِهِ تبارك وتعالَى:

﴿ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ (١).

والوسـيلةُ: ما يُتَقَرَّب بِهِ إلَى شـيءٍ آخرَ أعظمَ، وقد فسّرها الحديث الشريفُ القائلُ: فَإنَّها مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لاتَنْبَغِي إلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبادِ اللهِ.. وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنا : هُوَ» . فهذه المنزلةُ تُقرِّب الـمُصطفى ﷺ إلَى ربِّه، وتجعلُه فِي مقام كريم.

والفضيلة: هي مرتبةٌ زائدة تخصُّ سـيدَنا محمدًا دون سائرِ الخلق، وقد تكون تفسيرًا للوسـيلة..

والمراد بقوله: «وابْعَثْه مَقامًا مَحْمودًا» : هو الشـفاعةُ العُظمى لفصلِ الخِطاب بيْن الخلائق. وجاء اللَفظُ بالتَّنْكيرِ مُراعاة للنَّصِّ القرآنيِّ:

﴿ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (٢).

وجـاء التنكيرُ أيضًا للتفْخيـم.. وهناك روايـةٌ بالتعريف، هكذا: «وابْعَثْهُ الـمقامَ الْمَحْمُودَ» . وإنما كان المقامُ محمودًا، لأنَّ الخلائقَ كلَّها تحْمدُ فيه رسولَ الله مُحمّدًا ﷺ لشفاعتِه عند ربِّه.

---

(١) سورة البقرة الآية ١١٠.

(٢) سورة الإسـراء الآية ٧٩.

وإذا حافظ المُسلم على هذا الدُّعاءِ عَقِب الأذانِ وجبتْ له شفاعةُ الحبيبِ المُصْطفى، ودخَل تحت اللِّواءِ المرْفوع لسيِّدِنا رسولِ اللهِ، وحظِيَ بمزيدِ الثوابِ والفضلِ من اللهِ العَلِيِّ الأَعْلَى..

obeikandl.com

سُكْنَى الْمَدِينَةِ

أخرج مسلمٌ في صحيحِه، بسندِه عن عامر بن سعد، عن أبيه، قال: قال رسول الله ﷺ: «إنِّي أُحَرِّمُ ما بَيْنَ لابَتَي الْمَدِينَةِ أَنْ يُقْطَعَ عِضاها، أَوْ يُقْتَلَ صَيْدُها» وقالَ: «الْمَدِينَةُ: خَيْرٌ لَهُمْ، لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ، لايَدَعُها أَحَدٌ، رَغْبَةً عَنْها: إِلَّا أَبْدَلَ اللهُ فِيها مَنْ هُوَ خَيْرٌ مِنْهُ.. وَلايَثْبُتُ أَحَدٌ عَلَى لأْوائِها وَجَهْدِها إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيامَةِ» ..

***

المدينة هي البلدة الطَّيِّبة التي أقام فيها الرسولُ ﷺ بعد هجرته من مكة، واستقر فيها مع أصحابِه المُهاجرين والأنصار، وانتشر منها نورُ اللهِ في الآفاقِ، وجاء نصرُ اللهِ والفتحُ.. وقد حظِيَت المدينة المُنَوَّرة برفعةٍ وشرفٍ، كما حظِيَت مكةُ المُكرَّمة. فإبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الذى بنَى الكعبةَ مع ولدِه إسماعيل عليه الصلاة والسلام ونشأت حول الكعبةِ مكَّةُ، واستقر الناسُ فيها، وتحوّلت إلى حَرَمٍ آمِنٍ، يُجْبَى إِلَيه ثمراتُ كلِّ شيء..

وبما أن محمدًا ﷺ هو دعوةُ أبيه إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كما في قوله تبارك وتعالى:

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (١).

فلقد دعا سيِّدُنا محمدٌ ﷺ للمدينةِ، كما دعا إبراهيمُ عليه الصلاة والسلام لمكَّةَ، واستجاب الله دعوة نبيِّه محمد ﷺ، فجعل المدينةَ حرمًا آمِنًا، أي: مكانًا معظَّمًا، تُضاعف فيه الحسنةُ، ولا يُقطع عِضاها، أي: شجرُها الذي لايستنبتُه الناس، ولايُطارد صيْدُها..

وبيّن الرسولُ ﷺ، حدودَ المدينةِ، فقال: «مابَيْنَ لابَتَيْها.». واللَّابَةُ هي الأرضُ ذاتُ الحجارةِ السوداء، وتُسمى حَرَّة، وللمدينة حرَّتان: شرقية وغربية..

ولمَّا كان المسلمون في أول عهدهم بالهجرة يُعانون من تركِ الأوطان والأهل والمالِ، والانتقال إلى طقْس لم يألفوه سبَّب لهم بعض الأمراض – فقد رغَّبهم الرسولُ ﷺ في الإقامة بالمدينة، حِرصًا على العقيدةِ وتدعيمًا لقوةِ المسلمين، فقالَ: «لايَثْبُتُ أَحَدٌ عَلَى لأْوائِها وجَهْدِها: إِلَّا كُنْتُ لَهُ شَفِيعًا أَوْ شَهِيدًا يَوْمَ الْقِيامَةِ» واللأواء: الشِّدَّة والْجوع.. والجَهد – بالفتح – : المَشَقَّة.. فهؤلاء الذين هاجروا في الله ولله، وليس لدُنيا يُصيبونها أو نساء ينكحونها؛ فإنّ الرسول الكريم ﷺ يكون لهم شهيدا على أفعالِهم الصالحةِ، شفيعًا لهم عند المَلِكِ الحقِّ المُبين.

وهذا الحُكم مرهونٌ بهذه العلَّةِ، فحيْث تكون الإقامةُ بالمدينةِ من أجل الدِّين ونُصرة المسلمين، فللمُقيم هذه الشفاعةُ من الرسولِ ﷺ أما الذين

(١) سورة البقرة الآية ١٢٩.

يذهبــون لغرضِ الدُّنيا ومتاعِ الحياةِ وجميعِ الأموالِ، فلا نصيبَ لهم من هذه الشفاعةِ إلا بقدرِ نيَّتِهم وحُسْن علاقتِهم بإخوانهم والتزامِهم بشَرْعِ اللهِ ووفائِهم لرسولِ اللهِ ﷺ.

obeikandl.com

مُناجاةٌ حَوْلَ الشَّفاعَةِ

أخرج البخاريُّ فِي صحيحِه، بسندِه عن حميد، قال:
سَمِعْتُ أَنَسًا ﷺ، قالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: (إذا كانَ يَوْمُ الْقِيامَةِ شُفِّعْتُ، فَقُلْتُ: «يارَبِّ، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كانَ فِي قَلْبِهِ خَرْدَلَةٌ).
فَيَدْخُلُونَ. ثُمَّ أَقُولُ: «أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كانَ فِي قَلْبِهِ أَدْنَى شَيْءٍ».
قالَ أَنَسٌ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَصابعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

***

هذا حِوارٌ قُدْسِيٌّ بين اللهِ عزّ وجلّ ومُصطفاه سيِّدِنا محمدٍ ﷺ حول الشفاعةِ، التى كرّم الله تبارك وتعالى بها هذا النبيَّ العظيم..
ففى يوم القيامة يُشَفَّعُ الرسولُ ﷺ أى: تُقبل شفاعتُه. فالرسولُ ﷺ شافعٌ مُشفَّعٌ، أى: طالبٌ للشفاعةِ، ومقبولُ الشفاعةِ.
فيُنادى الرسولُ ﷺ ربَّه تبارك وتعالى قائلا: «يارَبِّ، أَدْخِلِ الْجَنَّةَ مَنْ كانَ فِي قَلْبِهِ خَرْدَلَةٌ». فيُجابُ على الفور، ويدخُل هؤلاء الْجَنَّةَ.
والخَردلةُ: تَعبيرٌ عن الشيء الصغير. والمُراد: الإيمانُ القلبيُّ، فإن الإيمان تصديقٌ وعملٌ ونُطقٌ..
والتصديق هو الرُّكن الأساسى.. ويزيد هذا التصديقُ وينقُص تبعًا

للأعمـالِ.. ويأتِي النُّطق باللِّسـانِ لِتَجْرِىَ على المَرْءِ أحكامُ الإسـلامِ فِي المجتمع..

ورُكْنـا العملِ والنطقِ قد يتحقّقـان فى الواقع، وقد يعْتريهما نُقصان أو خَفـاء.. أمّا رُكن التصديقِ القلبىّ، فإمّا أنْ يوجد أو يُعدم. وهو فيْصل التفرقةِ بين الإيمانِ والكُفر فِى الآخِرةِ..

فـإنّ قوْمًا قد يأتـونَ يومَ القيامةِ ولاعمـلَ لهم، فيدخُلـون النّارَ لقضاءِ العقوبةِ المُؤقّتة عليهمْ دهرًا من الزمنِ، فيأتى رسـولُ الله ﷺ ليشفعَ لهم فـى انتهاء العقوبة وإدخالهم الجنة، لِما اسـتقرَّ فى قلوبهم من الإيمانِ، كمِثقالِ حبةٍ من خردلٍ أو أدنى من ذلك.

وقد ضمَّ الرسـول ﷺ أصابِعَه وحلّق بها حَلَقاتٍ صغيرة، يُوَضِّح بها مرادَه ويُقَرِّب بها المعنى..

ويظلّ الرسولُ الكريمُ ﷺ يَشْفَعُ عند ربِّه ويُسْتجاب لشفاعتِه، حتى لايبقى فى النارِ مَن كان فِى قلبِه أدْنى شىءٍ من الإيمان.. وحينئذٍ تُغلقُ أبوابُ النّار على الكافرين..

﴿ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾ (١).

فهذا الحديث الشريف يعرض لمناجاة علوية بين سيدنا محمد وربه، يظل فيها الرسول يناجى ربه مرات حتى يخرج من النار أدنى المؤمنين عملاً فضلا من الله ونعمة وإظهار لكرامة رسول الله ﷺ.

---

(١) سورة الجاثية الآية ٣٤.

عُتَقاءُ اللهِ تبارَك وتعالَى

أخرج البخاريُّ فِي صحيحِه، بسنده عن عمرانَ بنِ حُصَينٍ رضِيَ اللهُ عنهما، عن النبيِّ ﷺ، قال: «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ بِشَفَاعَةِ مُحَمَّدٍ ﷺ فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، يُسَمَّوْنَ الْجَهَنَّمِيِّينَ».

***

هـذا نبأٌ من الغيْبِ يسُوقه الرسولُ ﷺ تذكيرًا للمُؤمنين، حتى يُسارِعوا إلَى العملِ الصالحِ قبل أنْ تلفَحَهمُ النَّارُ بلهيبِها، وحتى يُدرِكوا فضلَ نبيِّهم، الذى أنقذَهم من النَّارِ بالدعوةِ والعمل..

فإنَّه ﷺ قد بلّغ الرسالةَ، وأدَّى الأمانةَ، ونصَح الأُمَّةَ، وكشَف الغُمّةَ، وجاهد فِي اللهِ حقَّ جِهادِه، حتى أتاه اليقينُ.. وإذا كان يومُ القيامةِ، فإنه ﷺ يتعقّب أُمَّتَهُ فِي كلِّ مكانٍ، ليأخُذَ بأيْديها إلَى الْجَنَّةِ؛ فقد يُدْرِكُ بعْضَها فِي الطريقِ فيُنقِذُهم إنْقاذا تامًّا مِنَ النَّارِ، وقد يُدرِك بعضًا آخرَ بعد أنْ يُلْقَى فِي جهنَّمَ، فيمسُّهم منها سَفْعٌ، أى سوادٌ فيه زُرقة أو صُفرة.. يُقال: سفعتْه النَّارُ إذا لفحَتْه، فغيّرت لوْنَ بَشَرَتِه..

وفِي صحيح البُخاريِّ عن أنسِ بنِ مالكٍ عن النبيِّ ﷺ قال: «يَخْرُجُ قَوْمٌ مِنَ النَّارِ، بَعْدَمَا مَسَّهُمْ مِنْهَا سَفْعٌ، فَيَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ، فَيُسَمِّيهِمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَهَنَّمِيِّينَ».

وهـؤلاء الجَهَنميُّون، أى: أَصْحابُ جهنَّم، الذيـن قضَوْا فيها حِقَبًا أكْثرَ منْ غيرِهم يُسمَّوْن أيضًا عُتقاءَ اللهِ. فَفِى رِوايةٍ لجابر:

«فَيُكْتَـبُ فِى رِقَابِهِمْ: عُتَقاءُ اللهِ، فَيُسَـمَّوْن فِيها - أَىْ فِى الْجَنَّةِ - الْجَهَنَّمِيِّينَ.

وأخرج النسائىُّ عن أنس:

«فَيَقُولُ لهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ: هؤُلاءِ الْجَهَنَّمِيُّونَ، فَيَقُولُ اللهُ: هؤُلاءِ عُتَقاءُ اللهِ.

وهـذا الوصفُ بالجهنميِّين يُسـبِّب لهم إزعاجًا وقلقًـا. ولهذا جاء فـى رواية لحُذيْفة عند البيْهقىِّ: «أَنَّهُمُ اسْـتَغْفَرُوا اللهَ مِنْ ذَلِكَ الاسْـمِ، فَأَعْفاهُمْ».

ولعلَّ هذا الوصفَ إنما لَحِقهُمْ فترةً من الزمنِ ليستشعِروا نعمةَ اللهِ عليهم. فإنَّ العدلَ هو عِقابُهم، وإنَّ الفضلَ هو العفوُ عنهم، وإنَّ التكريمَ هو جعلُ العفوِ مُرتبطًا بشفاعةِ الحبيبِ المُصْطَفى سيِّدِنا محمدٍ ﷺ..

ولتعلمْ أنَّ الجَنَّةَ: دارُ السَّلام، لا لغْوٌ فيها ولا تأثيمٌ.

وكلُّ من دخلِ الجنَّةَ - سـواءً من السابقين أو الآخِرين - يحْظَى بما لاعينٌ رأتْ ولا أُذنٌ سمِعتْ، ولا خطر على قلْبِ بشَرٍ..

إغْلاقُ الأَبْوابِ

أخرج مسلمٌ فِي صحيحِه، بسندِه عن أَبِي سعيدٍ - رضي الله عنه - قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «أَمَّا أَهْلُ النَّارِ الَّذِينَ هُمْ أَهْلُها، فَإِنَّهُمْ لا يَمُوتُونَ فِيها ولا يَحْيَوْنَ، وَلَكِنْ ناسٌ أَصابَتْهُمُ النَّارُ بِذُنُوبِهِم - أَوْ قال بِخَطاياهُمْ - فَأَماتَهُمْ إِماتَةً؛ حَتَّى إذا كانُوا فَحْمًا، أُذِنَ بِالشَّفاعَةِ، فَجِيءَ بِهِمْ ضَبائِرَ ضَبائِرَ، فَبُثُّوا عَلَى أَنْهارِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ قِيلَ: يا أَهْلَ الْجَنَّةِ، أَفِيضُوا عَلَيْهِمْ فَيَنْبُتُونَ نَباتَ الحِبَّةِ فِي حَمِيلِ السَّيْلِ» .

***

هذا الحديثُ الشريفُ يُؤكِّد قاعِدةً شرعيةً من أُصولِ الدِّينِ، هي أَنَّ الكافِرَ مُخَلَّدٌ فِي النارِ أَبَدَ الآبادِ وَدهرَ الداهِرين، لا تنالُهُ شفاعةٌ، ولايموتُ فيها فيستريحَ، ولايحيا حياةً طيِّبةً فَيَخرجُ منها..

قال تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا۟ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٦﴾ وَنَادَوْا۟ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ ﴿٧٧﴾﴾ (١).

أَمَّا المُؤمنُ الذى ارْتكبَ ذنبًا أَو خطيئةً، ومات دون توبةٍ، فأَمْرُه مُفوَّضٌ إِلَى اللهِ: إِنْ شاء عذَّب، وإِنْ شاء عفا، لقولهِ جلَّ شأنه:

---

(١) سورة الزخرف الآيات ٧٤ - ٧٧.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ ﴾[1].

والحديث الشريف يُصوِّر بعضًا مِنْ هؤلاء، إنهمْ مؤمنون يشهدون للهِ بالوحدانيَة ولمحمدٍ ﷺ بالرِّسالةِ؛ لكنهم عملوا السَّيِّئاتِ فأصابتْهم النارُ جزاءَ أعمالِهم، فقضتْ على معالم حياتِهم الإنسانيَّةِ، وأصبحوا كالفحْمِ سودًا؛ فيأذن اللهُ تبارك وتعالى بالشفاعةِ فيهم، ثُمَّ ينقُلهم ضبائِرَ ضبائِرَ، أي: جماعاتٍ جماعاتٍ، ثمُ يُميتُهم إماتةً، أي: يمنحُهم مرحلةَ انتقالٍ بيْن ماكانوا فيه من الآلام وبيْن مايصيرون إليْه من الآمالِ، حتى ينسَوْا ما مضى ويستعدُّوا لما هو آتٍ من النعيم المُقيم.

وينشُرُهم اللهُ تعالى على أنهارِ الجَنَّةِ ينتَشِقون عبيرَها، ويتوافدُ عليْهم أَهْلُ الجنَّة يُبشِّرونهمْ بالنُّزُلِ الجديدِ والمقام الحميد..

«فَيَنْبُتُون نَباتَ الحِبَّةِ في حَميلِ السَّيْلِ» أي: يستعيدون نشاطَهم وحيويَّتَهم شيئًا فشيئًا، كما تَخْرُجُ البذرةُ حين يلْقاها ماءُ المطرِ سريعةً وضعيفةً، ثُمَّ تقْوَى وتشتدُّ ..

هؤلاء يكونون آخِرَ أَهْلِ النارِ خُروجًا، وآخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخولًا..

وحينئذ تُغلق الأبوابُ، ويُقال:

[يا أَهْلَ الجنَّةِ، خُلودٌ بلا مَوْتٍ.. وَيا أَهْلَ النَّارِ، خُلودٌ بلا مَوْتٍ].

وهؤلاء الذين أُغلِقت عقِبَهم أبوابُ جَهنَمَ وأبوابُ الجنةِ، قد خرجوا

---

(١) سورة النساء الآية ١١٦.

من النَّارِ بشفاعةِ سيِّدِنا محمدٍ ﷺ ، وهم المقْصودون برحمةِ الرحمنِ فِي الحديثِ السابق:

«شَفَعَتِ الْمَلائِكَةُ، وشَفَعَ النَّبِيُّونَ، وَشَفَعَ الْمُؤْمِنُونَ، وَلَمْ يَبْقَ إلَّا أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ» .

وبذلك يكون لسيِّدِنا محمدٍ ﷺ فَضْلُ السَّبْقِ بالشَّفَاعةِ العُظْمى، وفضْلُ الخِتامِ بالشفاعةِ فِي عُتَقاءِ اللهِ..

obeikandl.com